﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية ١٤: أورد المفسّرون أنّها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه المنافقين. كان إذا لقي سعدًا قال: نعم الدينُ دين محمّد، وإذا خلا برؤساء قومه من أهل الكفر، قال: شدّوا أيديكم على دين آبائكم. وخرج ذات يوم مع أصحابه فاستقبلهم نفر من الصّحابة ﷺ فقال عبدُ الله لأصحابه: انظروا كيف أرُدُّ هؤلاء السّفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر ﷺ فقال: مرحبًا بالصدّيق سيّد بني تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله ﷺ في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثمّ أخذ بيد عمر ﷺ، فقال: مرحبًا بسيّد بني عديّ بن كعب، الفاروق، القويّ في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثمّ أخذ بيد عليّ ﷺ فقال: مرحبًا بابن عمّ رسول الله ﷺ وختَنِه، سيّد بني هاشم، ما عدا رسول الله ﷺ، فقال عليّ ﷺ: يا عبد الله، اتّقِ الله ولا تنافق، فإنّ المنافقين شرُّ خليقة الله، فقال عبد الله: مهلًا يا أبا الحسن، أنّى تقول هذا؟ والله إنّ إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم، فنزلت الآية.

المعنى العام

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

النّفاق هو: إظهار الخير وإسرار الشّر، وهو أنواع: اعتقاديّ، وهو الذي يخلد صاحبه في النّار. وعمليّ: وهو من أكبر الذّنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى. قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، وإنّما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنيّة لأنّ مكّة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، فمن النّاس من كان يُظْهِرَ الكفرَ مستكرهًا وهو في الباطن مؤمنًا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاثةَ قبائل: بنو قَينُقاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضير وبنو قُرَيْظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتيّ الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا لأنّه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكة تُخاف، فلمّا كانت واقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعزّ الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أُبيّ بن سلول وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج،

وكان سيّد الطائفتين في الجاهليّة، وكانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوهُ عليهم، فجاءهم الخيرُ وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلمّا كانت واقعة بدر قال: "هذا أمر قد توجّه"، فأظهر الدّخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونِحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثمّ وُجد النّفاق في أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، فأمّا المهاجرون فلم يكن فيهم أحد يهاجر مكرهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدّار الآخرة.

افتتح الحقّ ﷻ بذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثمّ ثنّى بالكافرين الذين محّضوا الكفر ظاهرًا وباطنًا، ثمّ ثلّث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة لأنّهم خلطوا النفاق بالكفر استهزاء وخداعًا، ولذلك كانوا في الدّرك الأسفل من النّار.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مَن هم موصوفون بالنّفاق كبعض اليهود والمنافقين، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم من إظهار الخير وإسرار الشّرّ، يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وبِاليَومِ الآخِرِ﴾ أي صدّقنا بالبعث والنُّشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدّقين ولا مؤمنين، لأنّهم يقولون ذلك قولًا من دون اعتقاد، وكلامًا من دون تصديق، ﴿يُخادِعونَ اللهَ والَّذينَ آمَنوا﴾ بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنّهم يخدعون الله، فقابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وما يَخدَعونَ إلَّا أنفُسَهُم وما يَشعُرونَ﴾ أي: وما يغرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم في الحقيقة، وما يشعرون أنّ خداعهم وبال عليهم. فالمنافق يصدّق بلسانه، وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسي على غيره.

والنّفاق أنواع: اعتقاديّ، وهو الذي يخلد صاحبه في النّار. وعمليّ: وهو من أكبر الذّنوب. وإنّما حصلت لهم هذه المخادعة لأنّ ﴿في قُلُوبِهِم﴾ مرضًا كالشّكّ- وهو من أخطر الأمراض- والحسد - وهو من أشدّ الأمراض فتكًا بالقلوب- وسبب هذه الأمراض ضعف الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى، وعبادة الأسباب. فقلوبهم مذبذبة، وأنفسهم مغمومة بما أُنزِل عليهم من الآيات التي تفضحهم ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ على مرضهم، لأنّهم لم يعترفوا بأمراضهم ويبتهلوا إلى الله كي يُبرّئهم منها، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة - إذا قدموا على الله - ﴿عَذَابٌ﴾ موجع؛ بسبب تكذيبهم لِرسول الله ﷺ أو كذبهم على الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ويقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإذَا قيلَ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿لا تُفسِدُوا في الأَرضِ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان، وإغراء أهل الكفر والطغيان على أهل الإسلام والإيمان، ونشر الفساد، وتهييج الحروب والفتن، وإظهار الهرج والمرج والمحن، وإفشاء أسرار المسلمين لأعدائهم الكافرين، فإنّ ذلك يؤدّي إلى فساد النّظام، وقطع موادّ الإنعام، ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم الفاسد: ﴿إنّما نحن مصلحون﴾ في ذلك، فلا تصحّ مخاطبتنا بذلك، فإنّ من شأننا الإصلاح والإرشاد، وحالنا خالص من شوائب الفساد، فكانوا كمن قال الله تعالى ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ولذلك ردّ الله عليهم أبلغَ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد: ﴿ألا﴾ المنبّهة و ﴿إنَّ﴾ المقرّرة، فقال: ﴿ألا إنَّهُم هُمُ المُفسِدونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرونَ﴾ أي: ألا فانتبهوا أيُّها النّاس، إنّهم هم المفسدون حقًّا لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يحسّون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء المنافقين من المشركين واليهود: اتركوا ما أنتم عليه من الكفر والجحود، وراقبوا الملك المعبود، وطهّروا قلوبكم من الكفر والنّفاق، وانْتهوا عمّا أنتم عليه من العناد والشّقاق و﴿آمنوا﴾ إيمانًا خالصًا كإيمان المسلمين، لتكونوا معهم في أعلى عليّين، و«﴿المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ﴾»[1]، ﴿قَالُوا﴾ مترجمين عمّا في قلوبهم من الكفر والنّفاق: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الذين لا عقل لهم، إذ جُلّهم كانوا من فقراء والمَوَالي. قال الحقّ في الردّ عليهم وتقبيح رأيهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ لا غيرهم، حيث تركوا ما هو السّبب في الفوز العظيم بالنّعيم المقيم في الدّنيا، وارتكبوا ما استوجبوا به الخلود في الدّرك الأسفل من الجحيم ﴿وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ﴾.

عبَّر الحقّ في هذه الآية بـ﴿لا يعلَمون﴾ وفي الأولى بـ﴿لا يَشْعُرون﴾ لأنّ الفساد في الأرض يدرك بأدنى شعور، بخلاف الإيمان والتمييز بين الحقّ والباطل فيحتاج إلى زيادة تفكّر واكتساب علم.

إنّ من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٍ﴾[2] لذا قطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[3] ثمّ قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[4]، فالمنافق لمّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصلًا، لأنّه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنّه استمرّ على حاله الأوّل لكان شرّه أخفّ، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله، لأفلح وأنجح.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴿١٤﴾ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ في وصف المنافقين تقريرًا لنفاقهم - إنّهم كانوا - ﴿إِذَا لَقُوا﴾ الصّحابة أظهروا الإيمان، وإذا رجعوا ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: كبرائهم المتمرّدين في الكفر والطّغيان، قال ابن جرير: وشياطين كلّ شيء مردتُه، ويكون الشّيطان من الإنس والجنّ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[5]، عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يَا أَبَا ذَرٍّ، اسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَهَلْ لِلْإِنْسِ مِنْ شَيَاطِينَ؟ قَالَ: «﴿نَعَمْ﴾»[6] فالشّيطان هو كلّ من يدعو إلى المعصية. ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لم نخرج عن ديننا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بهم، ومستسخرون بشأنهم. ثمّ ردّ الله تعالى عليهم فقال: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ واللفظ من باب المشاكلة اللفظيّة أي: يُجازيهم بسبب استهزائهم، فيفعل بهم فعل المستهزئ بأن يفتح لهم بابًا إلى الجنّة وهم في النّار، ويطّلع المؤمنين عليهم، فيقول لهم: ادخلوا الجنّة، فإذا جاؤوا يستبقون إليها وطمعوا في الدّخول، سُدَّتْ عليهم ورجعوا إلى النّار. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يمهلهم ﴿فِي﴾ كفرهم، و﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ يتحيّرون إلى يوم يبعثون لأنّهم ﴿اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: استبدلوا بها رأس مالهم فضلًا عن الرّبح، فالإيمان هو رأس

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود،، كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله ﷻ، رقم الحديث: ٦١٦٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٦) رواه أحمد في مسنده، عن أبي ذر، مسند: الأنصار، مسند: حديث أبي ذر الغفاري، حديث رقم: ٢١٥٥٢.

المال، وأعمال الطّاعات هي الرّبح، فإذا ذهب رأس المال فلا ربح. فالعقيدة قبل كلّ شيء وإلا حبطت جميع الأعمال والطّاعات. ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾، بل خسرت صفقتهم، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى أسباب الربح أبدًا، لاستبدالهم الهدى - التي هي رأس المال - بالضّلالة - التي هي سبب الخسران-.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالعمى يكون للبصر، أمّا العمه- يعمهون- فهو للبصيرة. ﴿يمدهم﴾ أي يملي لهم ويزيدهم. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾[1] وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[2] فكلّما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة، فيعطيهم الله ما يظنّون أنّ فيه سعادتهم. فظاهرًا يفرحون بها، وحقيقةً لا يسعدون بها بل تكون فيها شقاوتهم.

قال ابن جرير: والعَمَه الضّلال، وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يتردّدون حيارى ضُلّالًا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا، لأنّ الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. **الإيمان ليس مجرد إقرار باللسان:** دلّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ على أنّ الإيمان لا يتحقّق بمجرد الإقرار باللسان دون الاعتقاد الجازم بالقلب. فقد أخبر الله تعالى عن إقرارهم بالإيمان ونفى عنهم حقيقة الإيمان، بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. فمن دخل الإسلام لغاية دنيويّة، كالزواج أو غيره، لا يكفيه ذلك الإقرار باللسان فقط، بل يجب عليه أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بلا شكّ، ويؤمن في قلبه بأركان الإيمان. فلا يُقبل الإيمان والإسلام إلا باعتقاد جازم مع إقرار، وهنا نجد أنّ المؤمنين على مرتبتين: متّقين و موقنين: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٢. **أمرهم بالإيمان الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر:** يُدعون إلى الإيمان الحقّ، إيمانًا جازمًا، الذي يشمل الإيمان بالله وأنّ الله أحدٌ فردٌ صمد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعثِ بعد الموت، والجنّة والنار.

٣. **التحذير من الكذب والنفاق والخداع:** عاقبة الخداع تعود على صاحبها، كما أنّ السيئة لا يتولد عنها إلّا سيئة مثلها.

٤. **وَبالُ نفاقهم أكبر من النفع الذي توهّموه:** لمّا كانت قلوبهم خالية من المعاني الحقيقية للإيمان، كان العقاب الذي حصدوه أعظم من أيّ نفع توهّموه بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ولولا نفاقهم هذا لما كان عذابهم أشدّ من الكفّار.

٥. **الجزاء والعقاب على من استبدل الكفر بالإيمان:** الجزاء والعقاب واقع على كلّ من بدّل بالإيمان كفرًا، وبالهدى

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥- ٥٦.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٤.

والقرآن والنّور والمنهج المستقيم ضلالًا وبطلانًا وظلامًا والتواءً؛ إذ إنّ هؤلاء أضاعوا رأس المال وهو ما كان لهم من الفطرة السّليمة والاستعداد العقليّ لإدراك الحقائق.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

١. **تحذير من خداع المدافعين الزائفين المدّعين الدّفاع عن حقوق الإنسان:** يجب علينا أن نبيّن وننشر الوَعْيَ بين النّاس بأنّه قد وضَحَتْ وتجلّتْ خطورةُ الأكاذيب التي يروّجها من يدّعون أنّهم يدافعون عن حقوق الإنسان، بينما في الحقيقة هُمْ يسعَوْنَ لتدمير القيم والأخلاق. هؤلاء قد يدافعون عن الحريّات وعن حقوق المرأة والطفل، لكنّهم في الواقع يريدون استغلالها وتدمير تماسك الأسرة والمجتمع تحت غطاء الإصلاح. مثال على ذلك الذّين يَدْعونَ لتقبّلِ الشُّذوذ أو بعضُ الدُّعاة اليوم الذين يبيحون نزع الحجاب، وعدم قضاء الصّلوات، وصيام الحائض، وكلّ ذلك يهدف إلى إفساد العقيدة وزعزعة الإيمان والتّفلّتِ من الضوابط والأمور التي تحافظ على طهارة وسلامة المجتمع من الرذائل والشّذوذ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون ۝١١ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لا يَشْعُرُون ۝١٢﴾.

٢. **الاستعاذة من النفاق والدعاء بحفظ الأمّة من شرّ المنافقين:** ادعُ الله أن يحفظ الأمة من شرّ المنافقين، الذين يظهرون الصّلاح ويبطنون الفساد. مثال على ذلك بعض الجمعيّات الخيريّة التي توزّع الطعام والدواء علنًا، ولكن تنشر السّموم في العقيدة والأخلاق سرًّا، وتعمل على إحداث الفتنة والفرقة، هؤلاء يدّعون مساعدة اللاجئين وتسهيل هجرتهم إلى أوروبا وكندا، بينما هدفُهم السيطرة على أطفالهم بعدها.

٣. **الإصلاح في الأرض يكون بطاعة الله ورسوله ﷺ:** الإصلاح الحقيقيّ يتحقّق بالعمل وفق طاعة الله ورسوله ﷺ، وبنشر الأخلاق المحمّديّة والقِيَم الحميدة وحسن المعاملة، وتعزيز وحدة الصفّ ونبذ الفرقة والصراع، ولو كان ديننا مختلفًا، ملتزمين المنهج الربّاني بقوله "لكم دينكم وليَ دين". وأنّ الإفساد في الأرض يكون بمعصيةِ اللهِ ورسولهِ ﷺ، ونشر الفتنة والعداء بين الأفراد والمجتمعات.

٤. **تبرير الفاسدين لإفسادهم:** الفاسدون دائمًا يبرّرون إفسادهم بأنّه إصلاح، ويتّهمون المصلحين بالإفساد وذلك في قلبٍ للحقائق، كما يفعل اليهود اليوم.

٥. ذكر الله تعالى أربع صفات من قبائح المنافقين، وكلّ واحدة منها كافية لإنزال العقاب بهم:

أ. **مخادعة الله:** الخديعة مذمومة، وهي من الأفعال التي يجب تمييزها كيلا يفعلها أحد.

ب. **الإفساد في الأرض:** بإثارة الفتنة، والتحريض على المسلمين، وترويج الإشاعات الباطلة.

ت. **الإعراض عن الإيمان الصحيح:** فهم يعرضون عن الاعتقاد الصحيح، الذي يجب أن يكون موافقًا للفعل.

د. **التمادي في الطغيان:** يتجاوزون الحدود، ويفترون على المؤمنين، ويصفونهم بالسَّفَهِ، مع أنّ المنافقين هم السفهاء الحقيقيون، لأنّهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

من الكبائر: ما يُعرف بذي الوجهين واللِّسانَيْنِ ناقد الإصلاح... وهو إذا خاصم فجر:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾[1] ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هي صفة مذمومة لكلّ من يعامل أقاربه وجيرانه ومَن حوله بوجهَيْن يكتِفُهُما حيث يشاء، يستخدمهما في أذيّة الآخرين والسّعي وراء إفساد القلوب المتآلفة. يظنّ أنّ من حوله لا يعرف الدّور الذي يقوم به، ويعتقد أنّه بذلك الوَجْهَين المتلوّنَيْنِ والقناعَيْنِ المُزَيَّفيْن يحقّق أهدافه السّيّئة دون أن يُكشف أمرُه.

وذو الوجهين من أخطر النّاس، ومن أصعب الشّخصيّات التي تواجهنا في حياتنا؛ لأنّه يُظهر لك الوجه الحسن، ويخفي الوجه القبيح الذي يستخدمه للطّعن في الآخرين من وراء ظهورهم. والمشكلة أنّ هذا الصنف من النّاس قد لا تكتشفه إلا بعد فوات الأوان؛ فهو في نظر الجميع يمارس دورًا إصلاحيًّا فيما يبدو للنّاس، وواقعه يقول غير ذلك، قال رسول الله ﷺ: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[2].

من شرّ الخصال أن يكون الإنسان مخادعًا عند اختلاف النّاس، يظهر لكلّ فريق أنّه معهم، وهذا النّوع من النّاس أشبه بالمنافق.

ولذي الوجهين يوم القيامة عقوبة شديدة، جاء بيانها في حديث عمّار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ»[3].

ولا يمكن لذي الوجهين أن يكون أمينًا عند الناس، لأنَّهُ رجلٌ يسعى بالفساد بين الخلق، وَينفُثُ سمومَ شرّه وحسد قلبه بينهم، لا يرضيه ونامُ النّاس ولا اجتماعُهم. قال رسول الله ﷺ: «وَتَجِدونَ شَرَّ النّاسِ ذا الوَجْهَيْنِ الَّذي يَأتي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، ويأتي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[4].

قال النّبيّ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[5]. ومعنى «إذا خاصم فجر»: أي قد يكون في الحياةِ شريكان أو زوجان أو صديقان اطّلع أحدهما على أسرارٍ وأمورٍ خاصّة بالآخر، فإذا حصل فراقٌ بينهما راح الزّوج يتكلّم في حقّ طليقتِه أو هي تتكلّم في حقّ طليقِها أو يتكلّم الشّريكُ في حقّ شريكه بإفشاء الأسرار وإظهار العيوب فصار عدوًّا فاجرًا.

أمّا خُلُقُ المؤمن فيكون كما قال الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[6].

التوجيهات:

١. **التحذير من حبّ الدُّنيا والرِّياء:** احذر من التعلّق الشديد بالدنيا ومن الرياء، فهذان المرضان الروحيّان يؤدّيان

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٦.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: الأدب، باب: ما قيل في ذي الوجهين، حديث رقم: ٦٠٥٨.
(٣) رواه أبو داود في سننه، عن عمار كتاب: الأدب. باب: في ذي الوجهين، حديث رقم: ٤٨٧٣، وإسناده حسن.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: المناقب. باب: قول الله تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إنا خلقناكم﴾، حديث رقم: ٣٤٩٤.
(٥) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو، كتاب: الإيمان. باب: علامة المنافق، حديث رقم: ٣٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

إلى التِّفاق، فحبُّ الدّنيا يجعل الإنسان يفقد توازنه القيَميّ والروحيّ، والرِّياءُ يدفع الشخص إلى إظهار الإصلاحِ بغية كسب مديح الآخرين لا ابتغاء وجه الله.

٢. **البحث عن الحقّ وليس عن الفتوى الموافقة للهوى:** ابحث عن الحقّ بصدق ونيّة خالصة، ولا تجعل هدفك العثور على فتوى تتماشى مع رغباتك الشخصيّة، فهذا الموقف يؤدّي إلى تضليل الذات، وتزييف الحقائق لتبرير الذنوب.

٣. **عدم تبرير المعاصي بدليل ضعيف:** بعضُ النّاس لِيَسْعَوْنَ للبحث عن دليل يوافق شهواتهم ويستخدمونه للردّ على من يُنكر عليهم، لا رغبة في الحقّ بل دفاعًا عن رغباتهم، فهؤلاء يجمعون بين ظلمة الذنب والجرأة على الحديث في دين الله بغير علم أو بيّنة. مخالفين إجماع الأمّة. وللأسف يخشى على من يفعل ذلك أن لا يُوفّق للتوبة النصوح بل يزداد ظلمة في حياته حتى يموت على ذنبه، كمن يبرّر عدم قضاء الصلوات الفائتة التي أجمع العلماء على وجوبها.

٤. **التحذير من سلوك المنافقين:** يجب التحذير من المنافقين وسلوكهم الملتوي. فلا بدّ من مقاومة أصحاب الوجوه المتعدّدة والأقنعة المزيّفة، ورفض تمرير خططهم التي تهدف إلى تفريق الأسر والمجتمعات والدول.

٥. **تفصيل أحوال المنافقين والكافرين:** فصّل الله تعالى أحوال الكافرين في آيتين، بينما فصّل أحوال المنافقين في ثلاث عشرة آية، لأنّ خطر المنافقين أشدّ من خطر الكافرين. فالمنافقون ينخدع بهم عوام المسلمين ويظنّونهم من المصلحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

في السّيرة والشّمائل

حكمة كفّ النّبيّ ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه أسماء بعضهم: سُئِلَ القُرطبيُّ وغيرُه من المفسّرين عن ذلك، فذكروا عدَّةَ أجوبة، منها:

- ما ثبت في الصحيحين، أنّ النّبيّ ﷺ قال لعمر رضي الله عنه عندما همّ بقتل أحد المنافقين وهو عبدالله بنُ أبي بنِ سَلُول: «دَعْهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، وذلك خشية أن يتسبّب ذلك في تخوّف الأعراب من الدخول في الإسلام، فيقولوا: إن محمّدًا يقتل أصحابه.
- وقيل: إنّ النّبيّ ﷺ لم يقاتلهم لما كانوا يُظهرونه من الإسلام مع علمه بنفاقهم، قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».
- وذكر القرطبيّ: أنّ رسول الله ﷺ كان يعطي المؤلّفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم، حرصًا على تأليف قلوبهم للإسلام.
- قال الإمام مالك رضي الله عنه: إنّما كفّ رسول الله ﷺ عن المنافقين، ليُبيّن لأمّته أنّ الحاكم لا يحكم بعلمه الشخصيّ، بل يعتمد على البيّنة، وذكر القرطبيّ أنّ العلماء اتّفقوا على أنّ القاضي لا يقتل بعلمه، ولا يُقيم حدًّا إلا بوجود بيّنة.
- قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، وإنّما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنيّة لأنّ مكّة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، فمن النّاس من كان يظهر الكفر مستكرهًا وهو في الباطن

مؤمنًا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلّا عبد الله بن سلام، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا لأنّه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكة تُخاف، فلمّا كانت واقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعزّ الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أُبيّ بن سلول وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيّد الطائفتين في الجاهليّة، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلمّا كانت واقعة بدر قال: "هذا أمر قد توجّه"، فأظهر الدّخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممّن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثمّ وُجد النّفاق في أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، فأمّا المهاجرون فلم يكن فيهم أحد يهاجر مكرهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدّار الآخرة.

في السّلوك

الإشارة: لمّا علموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال، فكان حالهم كالمقال من غير إيمان.

الإشارة: إلى أنّ من تناسى لطف الله السابق، وتناسى أنّ ما يمتلك من نِعم إنّما هو من فضل الله عليه، وقال: لي، وبي، ومنّي، وأنا، يقع في وهمه وظنّه، وهذا التوهّم من أصعب العقوبات، لأنّه يرى سرابًا فيظنّه شرابًا، حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه. فهو من الذين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ومن أصحاب الأمراض القلبيّة مثل العُجب (عندما نقول: أنا) والحرص (عندما نقول: لي) والاستكبار (عندما نقول: منّي) والعلائق (عندما نقول: عندي) فيجب التخلّص منها لأنّها تحبط الأعمال، على سبيل المثال، مرض الحسد والكِبْر عند إبليس اللّذين أَحْبَطا عبادته الّتي امتدّتْ مائتي سنة، وأخرجاه من الجنّة؛ لذا، لا بدّ من تطهير القلب من هذه الأمراض، وهو أمر سهل لمن عقد نيّة التوبة والاستقامة. ينبغي لكلّ شخص أن يطرق باب الله معترفًا بأمراض قلبه ويسأله التوبة، وإذا قصد بعدها رسول الله ﷺ معترفًا وتائبًا، لكان في ذلك خيرٌ عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[1].

الإشارة: ومن النّاس مَن يترامى بالدّعوى على الخصوصيّة، ويدّعي تحقيق مشاهدة الربوبيّة، وهو في الدّرك الأسفل من العموميّة، يخادع الله بالرّضا عن عيوبه ومساوئه، ويخادع المسلمين بتزيين ظاهره، ويتزين بِزيّ العارفين ويتعامل معاملة الجاهلين، وما يخادع في الحقيقة إلا نفسه، حيث حرمها الوصول. فقَلْبُهُ سقيم، وهو يظنّ أنّه في عداد مَن يأتي الله بقلب سليم، فزاده الله مرضًا على مرضه حيث رضي بسقمه وعيبه، وله عذاب الحرص والتّعب بسبب كذبه على الله، وإنكاره على أولياء الله، فجزاؤه البعد والخذلان، وسوء العاقبة والحرمان.

الإشارة: إذا قيل لمن يشتغل بالتّعويق عن طريق الله والإنكار على أولياء الله: أقصِرْ من هذا الإفساد، وارجع عن هذا الغيّ والعناد، قال: إنّما أنا مصلح ناصح، يقول له الحقّ ﷻ: بل أفسدت قلوب عبادي، ولكنّك لا تشعر بما أنت فيه من البليّة.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴿١٦﴾﴾.

الإشارة في قوله: منها أن من بقي في أوطان الحظوظ خسرت صفقته، وما ربحت تجارتُه. وإنَّ من رضي بالدّنيا عن العقبى لفي خسران ظاهر. وإنَّ من آثر الدّنيا أو العقبى على الحقّ تعالى لأشدّ خسرانًا [٢].

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون* أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُون﴾[٣].

قال سلمان الفارسيّ رضي الله عنه: لم يجئ أهل هذه الآية بعد، ومجيئُهم من أشراط السّاعة. وقال ابن جرير: يحتمل أنّ سلمان رضي الله عنه أراد بهذا، أنّ الذين يأتون بهذه الصّفة أعظم فسادًا من الذين كانوا في زمن النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

في الأدعية والأذكار

اللَّهُمَّ طهّر قلبي من النِّفاق وعملي من الرِّياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنَّك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور .

(٢) الإمام القشيري.